الدرس الثامن

(المتن)

وبالجملة فالتّشبيه والتّشبّه هو حقيقة الشرك، ولذلك كان من ظن أنه إذا تقرّب إلى غيره بعبادةٍ ما يقرّبه ذلك الغير إليه تعالى فإنه يخطئ، لكونه شبّهه به، وأخذ ما لا ينبغي أن يكون إلاّ له، فأشرك معه سبحانه وتعالى حقّه، فهذا قبيح عقلاً وشرعًا.

ولذلك لم يشرع، ولم يغفر فاعلمه.

(الشرح)

هذه القطعة جواب المسائل السابقة، ومع طول الفاصل بينها لما قال: المشركون: إن من تعظيم جناب الله ألا ندخل عليه إلا بواسطة الشفعاء والشركاء، كما هو الحال عند الملوك والسلاطين لا يوصل إليهم إلا عبر الوزراء والوسطاء وغير ذلك، فذكر الشيخ عدة أسئلة عن سر هذا الأمر، ولماذا كان هذا موجبا لسفك الدماء واستحلال الأموال والحريم، ولماذا كان ذلك موجبا للخلود في النار، وهل يمكن أن يستقل بذلك الشرع دون العقل، و لِمَ لم يكن من بداهة العقول.

كشف هذا فقال: من ظن أنه إذا تقرّب إلى غيره بعبادةٍ ما يقرّبه ذلك الغير إليه تعالى فإنه يخطئ، لِمَ؟ لكونه شبّهه به، بمعنى أنه جعل هذه الواسطة وهذا الشفيع بمنزلة الرب ﷻ، وأخذ ما لا ينبغي أن يكون إلا لله، فأشرك معه سبحانه وتعالى معه غيره فبخسه سبحانه حقّه، فهذا قبيح عقلاً وشرعًا، فهذا لا يختص بالقبح الشرعي، بل هو قبح شرعي وعقلي.

(المتن)

واعلم أن الذي ظن أن الرّب – سبحانه وتعالى – لا يسمع له، أو لا يستجيب له إلاّ بواسطة تُطلعه على ذلك، أو تسأل ذلك منه؛ فقد ظنّ بالله ظنّ السّوء، فإنه إن ظنّ أنه لا يعلم أو لا يسمع إلاّ بإعلام غيره له وإسماعه؛ فذلك نفي لعلم الله ولسمعه وكمال إدراكه، وكفى بذلك ذنبا.

(الشرح)

الشيخ رحمه الله يستفرغ الدواعي التي تحمل المشركين على اتخاذ الوسائط، فيقول لهم: ما الذي يحملكم على اتخاذ الوسائط؟، إن كان هذا بسبب أنه لا يسمع بنفسه ولا يعلم بنفسه فهذا من ظن السوء بالله تعالى، فكأنكم تقولون هو جاهل أو أصم أو لا يسمع إلا بواسطة أو غير ذلك، وكفى بذلك ذنبا.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

(المتن)

وإن ظنّ أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يليّنه ويعطّفه عليه، فقد أساء الظّن بأفضال ربّه وبرّه وإحسانه وسعة جوده.

(الشرح)

وهذه مفسدة أخرى عظيمة وظن سوء بالله رب العالمين، إن كانوا يظنون أن هؤلاء الوسطاء فائدتهم أنهم يلينون ويقنعون ويعطّفون المشفوع عنده وهو الله ﷻ فهذا قدح في رحمة الله تعالى وإحسانه، وكأنه لا يحصل ذلك إلا بواسطة الشفعاء، فأين يذهبون؟

ومما يناسب الجواب عن شبهتهم أن يقال: ظنهم أن الشفاعة عند الله كالشفاعة عند ملوك الدنيا يقبلها المشفوع عنده رغبة أو رهبة، ظن فاسد، والله تعالى ليس كذلك، فربنا ﷻ لا يقبل شفاعة الشافع ليستكثر من قلة ولا ليستعز من ذلة، هو ﷻ غني عن ذلك، ، ولهذا كانت الشفاعة له جميعا، **{قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُون}** [الزمر:٤٤].

وقال تعالى: **{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ}** [سبأ:٢٢]،تأمل كيف نفي الله ﷻ حججهم حجة حجة، فأولئك الأنداد

أولا: لا يملكون مثقال ذرة في السماوات أو في الأرض، لا يملكون استقلالا ولا ذرة واحدة، ربما قال قائل: لا يملكون استقلالا لكن يملكون مشاركة فقال ثانيًا: **{وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ}**.

ربما قال قائل: لا يملكون استقلالا ولا مشاركة، فلعلهم أن يكونوا بمنزلة الخدم والأعوان والحشم الذين لا يستغني عنهم صاحب السلطان، فقال ثالثًا: **{وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ}**، فماذا بقي إذًا حتى يدعونهم من دون الله؟.

بقي احتمال رابع: أن يقولوا لهم منزلة وجاه عند الله حتى وإن لم يكونوا يملكون استقلالا ولا مشاركة ولا معاونة، لكن لهم منزلة وجاه عند الله يدلون بها على الله ويدخلون به عليه، فقال الله إثراها: **{وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}**، أرأيتم حتى الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له، إذًا هو صاحبها سبحانه، **{قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}**.

فالشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند ملوك الدنيا، فملوك الدنيا فيستجيبون للشافع إما رغبة في استمالته أو خوفا من استعدائه أما عند الله فليس هذا الباب **{وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}**.

فلم ينف الشفاعة مطلقا وإنما أثبتها بشرطين: إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له، فإذا كان لا شفاعة عند الله مثبتة إلا بإذنه للشافع أن يشفع ورضاه عن المشفوع له أن شفع فمعنى ذلك أن الأمر كلـــه لله، هـــذه حقيقة التوحيد، حقيقة ناصعة بينة، ليس فيها متعلق لمشرك.

فإن قال قائل: إن كان الأمر كذلك فلمَ الشفاعة إذاً؟ فالجواب لها فائدة، وهو إظهار فضل الشافع، فـــالله تعالى يريد أن يكرم بعض أوليائه، فيجعل لهم هذه المنزلة وهي الشفاعة، لكنها شفاعة مشروطة بإذنه ورضـــاه، {وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء:٢٨]، {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [البقرة:٢٥٥]، {وَكَـــم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى} [النجم:٢٦].

وهذا يمحق تماما متعلقات المشركين، ويبقي التوحيد نقيا بريئا من كل شائبة.

(المتن)

وبالجملة فأعظم الذنوب عند الله – تعالى – إساءة الظّن، ولهذا يتوعّدهم في كتابه على إساءة الظّن به أعظم وعيد، كما قال تعالى: {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً} [الفتح:٦]، وقال تعالى عن خليله إبراهيم – عليه السلام: {أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: فما ظنّكم أن يجازيكم إذا عبدتم معه غيره، وظننتم أنه يحتاج في الاطلاع على ضرورات عباده، لمن يكون بابا للحوائج إليه، ونحو ذلك. وهذا بخلاف الملوك، فإنهم محتاجون إلى الوسائط ضرورةً لحاجتهم وعجزهم وضعفهم، وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين.

فأما من لا يشغله سمع عن سمع، وسبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرّحمة، فما تصنع الوسائط عنده؟

فمن اتخذ واسطةً بينه وبين الله – تعالى – فقد ظنّ به أقبح الظن، ومستحيل أن يشرعه لعباده، بل ذلك يمتنع في العقول والفطر.

(الشرح)

الظن هنا ليس بمعنى التوهم، الظن هنا بمعنى الاعتقاد الذي يكون في القلب، كقول إبراهيم لقومه: {فَمَـــا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، قول الله تعالى ناعيا على المشركين: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنـــتُم بِـــرَبِّكُمْ أَرْدَاكُـــمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِين} [فصلت:٢٣].

ما يكون في قلب العبد من الظن بربه هو الذي يبين إيمانه من كفره ويحدد مترلته من الإيمان ومترلته من الكفر، فمن كان ظنه بالله حسنا فإن الله تعالى يكون عند ظنه به، ومن كان يظن بالله السوء ويتهمه في شرعه وقدره وحكمه فهو وما اختار لنفسه، الله عند ظنه به، يعاقبه بجنس عمله.

فلا بد أن ينطوي القلب على ظن حسن بالله ﷻ، فيظن العبد بربه الظن الحسن في ذاته وأسمائه وصفاته وشرعه وقدره سبحانه وبحمده، فيعتقد لله الكمال المطلق الذي ليس فيه شائبة نقص بوجه من الوجوه، ويظن بالله الظن الحسن في أفعاله فيعتقد أنه لا يظلم مثقال ذرة، وأن جميع أفعاله معللة مبنية على الحكمة وليست صادرة عن تخرص أو ظلم أو سوء تقدير ويظن بالله الظن الحسن في شرعه، فيتيقن أن شرعه أعدل شرع، وأنه هو الملائم المناسب لحاجة العباد، ولهذا قال: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥]، ففتش عن قلبك وسل نفسك، {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات: ٨٧] ؟ واحذر أن يقال لك: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِين}.

لماذا؟ لأنهم ظنوا بالله ظن السوء، أما المؤمن فيقال له كما قال الله ﷻ في الحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي[1]- فليظن بي ما شاء)[2]، ولما عاد أحد الصحابة أحد التابعين وكان على فراش الموت قال: كيف تجدك؟ قال: أشفأت على هلكة، ولكني أحسن الظن بالله، فقال: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء)[3].

فإذا وجد الإنسان في قلبه حسن ظن بالله فليبشر، فإن هذا من عاجل بشرى المؤمن.

واعلم أن الخضوع والتأله الذي يجعله العبد لتلك الوسائط قبيح في نفسه، كما قرّرناه، لا سيما إذا كان المجعول له ذلك عبدًا للملك العظيم الرّحيم القريب المجيب، ومملوكا له، كما قال تعالى: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ}[الروم:٢٨]، أي: إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفردٌ به، وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصلح لسواي، فمن زعم ذلك فما قدّرني حقّ قدري، ولا عظّمني حقّ تعظيمي.

---

(1) أخرجه البخاري- (٧٥٠٥)، ومسلم- (٢٦٧٥).

(2) أخرجه الدارمي- (٢٧٧٣).

(3) تقدم تخريجه.

وبالجملة فما قدّر الله حقّ قدره من عبد معه من ظنّ أنه يوصل إليه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُـرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً} الآية، إلى أن قال: {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَـقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج:٧٣]، وقال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون} [الزمر:٦٧]، فما قدّر القويّ العزيز حقّ قدره من أشرك معه الضّعيف الذّليل.

(الشرح)

هذه القطعة من أحسن مواضع هذا الكتاب في رد شبهات هؤلاء المشركين الذين اتخذوا الوسائط بينـهم وبين الله ﷻ وهو أمر قد فشا في الأمة الإسلامية وللأسف، وجعل له هؤلاء السدنة من المشركين التعلـيلات الواهية والشبه المضلة التي راجت على الضعفاء والعوام.

فكلام الشيخ عنها في هذا الموضع ماحق لها ناسف لأصولها، وممن أوسعها بحثا وتتبع هذه الشبهات شـيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في (كتابه كشف الشبهات)، فقد أورد بضعة عشر شبهة من شـبهات هؤلاء المشركين الذي يسوغون دعاء الأموات والمقبورين ويسلّكونها بين الناس، فرد عليها ردا مقنعًا كاشـفً لزيفها وبطلانها.